شيخ الإسلام ابن تيمية

- ٢ -

أبيات من مراثيه

لقد نظم في رثاء الامام المترجَم وذكر أعماله ومآثره قصائد غرّ ، ذكر طائفة منها صاحب الكواكب . وقد اخترنا أبياتاً منهـا نذكرها انموذجاً لما قاله فيه ، بعض واصفيه : قال ابن فضل الله العمري من قصيدة طويلة :

مثل ابن تيمية ترضى حواسده ... بحبسه ولكم في حبسه غدروا

مثل ابن تيمية في السجن معتقل ... والسجن كالغمد وهو الصارم الذكر

مثل ابن تيمية تذوي خمائله ... وليس يلقط من أفنانه الزهر

مثل ابن تيمية شمس تغيب سدى ... وما ترق بها الآصال والبكر

مثل ابن تيمية يمضي وما عبقت ... بمسكه الغاطر الأردان والطرر

ومنها في حساده ومناوئيه :

هل فيهم صادع للحق مقوله ... أو خائض للوغى والحرب تستعر

رمى الى نحو غازان مواجهة ... سهامه من دعاء عونه القدر

بتل راهط والأعداء قد غلبوا ... على الشام وطال الشرّ والشرر

وشقّ في المرج والأسياف مصلتة ... طوائفاً كلهـا أو بعضها تتر

هذا وأعداؤه في الدار أشجعهم ... مثل النساء بظل الباب مستتر

ومن قصيدة لابن الوردي :

تقي الدين ذو ورع وعلم ... خروق المعضلات به تخاط

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

توفي وهو مسجون فريد وليس له الى الدنيا انبساط
ولو حضروه حين قضى لألفوا ملائكة النعيم به أحاطوا
قضى نحبا وليس له قرين ولا لنظيره لف القماط

ثم قال :

فيالله ما قد ضم لحد وبالله ما غطى البلاط
هم حسدوه لما لم ينالوا مناقبه فقد مكروا وشاطوا
وكانوا عن طريقته كسالى ولكن في أذاه لهم نشاط
وحبس الدر في الأصداف فخر وعند الشيخ بالسجن اغتباط
بآل الهاشمي له اقتداء فقد ذاقوا المنون ولم يواطوا

الى أن قال :

ألم يك فيكم رجل رشيد يرى سجن الامام فيستشاط
إمام لا ولاية كان يرجو ولا وقف عليه ولا رباط
ولا جاراكم في كسب مال ولم يعهد له بكم اختلاط
ففيم سجنتموه وغظتموه أما لجزا أذيته اشتراط
وسجن الشيخ لا يرضاه مثلي ففيه لقدر مثلكم انحطاط
أما والله لولا كتم سري وخوف الشر لانحل الرباط
وكنت أقول ما عندي ولكن لأهل العلم ما حسن اشتطاط
فما أحد الى الانصاف يدعو وكل في هواه له انخراط
سيظهر قصدكم يا حابسيه ويهديكم اذا نصب الصراط
فها هو مات عنكم واسترحتم فماطوا ما أردتم ان تماطوا
وحلتوا واعقدوا من غير رد عليكم وانطوى ذاك البساط

ومن قصيدة للشيخ محمد العراقي الجزري :

يا طليق اللسان في كل فن فلقد شرفت بك العلياء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ان تكن مت فالعلوم التي أحـــييت من بعد موتهـا احياء

ومنهـا :

أنت «صخر» الوجود في كل أرض والبرايا جميعهـا «الخنساء»

ومنهـا :

قسماً بالإله لو أنصف الدهـــر لأضحى في كلّ بيت عزاء

ومن قصيدة زين الدين عمر بن الحسام الشبلي رحمه الله :

سل عنـه غازانا وسل أمراءه لمـا أتوا بطلائع الأسراء

والمغل قد ملكوا البلاد وأهلها كم قدّ من عات بغير عناء

وللفاضل برهان الدين ولد شهاب الدين التبريزي الحنفي :

فمن جاهد الأعداء في الدين مثله ومن سلّ سيف العزم في وجه غازان

ومنهـا :

وما ضره ان طال في السجن مكثه اذا كان في نسك وطاعة رحمٰن

هذا قليل من كثير من مواهب هذا الامام الكبير وأعماله .

* * *

علاوة على المحاضرة

دفع فرية على ابن تيمية

بحث تاريخي علمي

لقد صدق كثير من العلماء والأدباء في مختلف العصور هذه الرواية الآتية في رحلة ابن بطوطة الشهير ، وجعلوها قضية مسلمة يروونها ويتوارثونها الى عصرنا هذا ، حتى ان دائرة المعارف الاسلامية التي تنقل الآن الى العربية في مصر ، قد ترجمت لابن تيمية ترجمة بقلم الأستاذ محمد بن شنب (ص ١٠٩ — ١١٦ ج ١) فيها أغلاط كثيرة ، ونقلت عبارة ابن بطوطة هذه ، وهي قوله عن إمام الشام وشيخ الاسلام ابن تيمية «وكنت إذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم ، فكان من جملة كلامه أن قال : إن الله ينزل الى سماء الدنيا كنزولي هذا ، ونزل درجة من درج المنبر » فرأيت أن أنشر كلمة في هذا الموضوع تكون الحد الفاصل بين الحق والباطل .

١ — ان ابن بطوطة رحمه الله لم يسمع من ابن تيمية ولم يجتمع به ، إذ كان وصوله الى دمشق يوم الخميس التاسع عشر من شهر رمضان المبارك عام ستة وعشرين وسبعمائة هجرية ، وكان سجن شيخ الاسلام في قلعة دمشق أوائل شهر شعبان من ذلك العام ، ولبث فيه الى أن توفاه الله تعالى ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة عام ثمانية وعشرين وسبعمائة هجرية ، فكيف رآه ابن بطوطة يعظ على منبر الجامع وسمعه يقول : ينزل .... الخ .

٢ — ان رحلة ابن بطوطة مملوءة بالروايات والحكايات الغريبة ، ومنها ما لا يصح عقلاً ولا نقلاً وهو يلقي ما ينقله على عواهنه ، ولا يتعقبه بشيء ، فمن ذلك قوله : (١ : ٥٤) وفي وسط المسجد (أي الأموي بدمشق) قبر زكريا عليه السلام ، والمعروف أنه قبر يحيى عليه السلام . وقوله أيضاً : وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري أن الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين الف صلاة ، وهذا لا يقال من قبيل الرأي ، وسفيان أجل من أن يفضله على حرم الرسول (ﷺ) وعلى المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين وهما لم يبلغ الثواب فيهما هذه الدرجة ، كما هو معلوم للمحدثين وغيرهم ، ومن نقوله التي أقرها ولم ينكرها (١ ، ١٩٩ ، ١٣٣ ، ١٣٦) النذور للقبور المعظمة ، والوقوف على أبواب الملوك ، ومن ذلك النذر لأبي اسحق ، اذا هاجت الرياح في البحار ، واشتدت الأخطار ، وهو ما لم يبلغه أهل الجاهلية الذين قال تعالى عنهم « فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » .

٣ — لم يكن ابن تيمية يعظ الناس على منبر الجامع كما زعم ابن بطوطة (١ : ٥٧) (فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ على منبر الجامع) بل لم يكن يخطب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أو يعظ على منبر الجمعة كما يوهمه قوله : «ونزل درجة من درج المنبر» وإنما كان يجلس على كرسي يعظ الناس ، ويكون المجلس غاصاً بأهله ، قال الحافظ الذهبي : «وقد اشتهر أمره ، وبعد صيته في العالم ، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه ، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم ، وكان يورد الدرس بتؤدة وصوت جهوري فصيح ، وقال : وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره أيام الجمع» .

وقال علم الدين البرزالي في معجم شيوخه : «وكان يجلس في صبيحة كل جمعة يفسر القرآن العظيم ، فانتفع بمجلسه وبركة دعائه ، وطهارة أنفاسه ، وصدق نيته ، وصفاء ظاهره وباطنه ، وموافقة قوله لعمله ، وأناب الى الله تعالى خلق كثير» وإنما كان يخطب الناس على منبر الجامع الأموي في عهد دخول الرحالة ابن بطوطة دمشق ، قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني وقد كان خطيب المسجد ، وإمام الشافعية فيه ، وكان سكناه بدار الخطابة (ج ١ ص ٥٦ رحلة ابن بطوطة) .

ومما تقدم يعلم ان ابن تيمية كان مدرساً واعظاً ، لا خطيباً ، وكان يلقي درسه في التفسير صبيحة كل جمعة ، وهو جالس على كرسي في الجامع الأموي لا واقف على منبر فينزل درجة عنه ، وقد أشار الى ذلك الحافظ المؤرخ ابن عبد الهادي بقوله : «ثم إن الشيخ جلس يوم الجمعة (أي بدمشق) على عادته ، وقال وهو يصف حاله وأعماله بمصر : ويتكلم في الجوامع على المنابر من بعد صلاة الجمعة الى العصر ، فهو لم يقل على منابر الجمعة ، ولا على منابر الخطابة ، والظاهر ان المراد بالمنبر كل ما ارتفع عن الأرض كما يؤخذ من مفهومه اللغوي ، فهو يعم هذه الكراسي التي يجلس عليها المدرسون في المساجد الكبرى بمصر والشام والعراق ليسمع منها الجماهير ، فكيف غفل ابن بطوطة عن ذلك ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٤ – انك لا تجد في جميع ما تراه من كتبه المخطوطة والمطبوعة غير تفسير مسهب لمثل قوله الذي نقله عنه الشيخ ابن ناصر الدين الشافعي في الرد الوافر : «ومذهب السلف والأئمة الأربعة وغيرهم : إثبات بلا تشبيه ، وتنزيه بلا تعطيل ، وليس لأحد أن يضع عقيدة ولا عبارة من عند نفسه ، بل عليه أن يتبع ولا يبتدع ، ويقتدي ولا يبتدي » ولمثل ما فسر به كلامه السيد صفي الدين الحنفي البخاري في القول الجلي بقوله : « قلت : – وتفسير كلامه أنه يجب الإيمان بجميع المتشابهات الواردة في الكتاب والسنة كاليد والوجه والاستواء والنزول ، على وجه يليق به تعالى ، فلا يكيف بشيء منها ، ولا يمثل بصفات المخلوقين ، كما هو مذهب السلف ومن تبعهم من الخلف ، فلا يقال يد كيدنا ، ولا وجه كوجهنا ، أو استواء كاستوائنا ، أو نزول كنزولنا ، بل يداه صفته بلا كيف ، وكذا وجهه ، وهكذا فقس سائر الصفات والأفعال » وأقول : هذه عقيدته الحموية والواسطية والاصفهانية التي عقدت له المناظرات حولها في مصر والشام ، بل هذه أيضاً كتبه ورسائله وفتاويه وردوده في العقائد قد بسط الكلام فيها على آيات الصفات والأفعال وأحاديثها كالوجه واليدين والاستواء والنزول وغيرها بالمعقول والمنقول ، وكلها يتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات ، إثباتاً بلا تشبيه ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما قال تعالى : « ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير » وقوله : « ليس كمثله شيء » رد للتشبيه والتمثيل ، وقوله : « وهو السميع البصير » دفع للإلحاد والتعطيل .

٥ – إن طريقة شيخ الاسلام في إثبات الأسماء والصفات ، وفي بيان منشأ غلط المعطلة والنفاة ، واضحة في جميع كتبه ، وخلاصتها أن لهذه الصفات وجوداً علمياً ذهنياً ، ووجوداً خارجياً عينياً ، فوجودها الذهني ، هو العلمي المطلق المجرد عن جميع الخصائص والإضافات كالحياة والعلم والقدرة ، والسمع والبصر والكلام ، وكون الموصوف حياً عليماً قديراً ، سميعاً بصيراً متكلماً ، وهذا القدر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مشترك بين الموجودات كافة ، يطلق عليها بالاشتراك الاسمي أو اللفظي ، كما هو ثابت لها في الوجود العلمي والذهني ، ولكن شيئًا من ذلك لا يقتضي المشاركة في الأعيان الخارجية ، بل الذهن يأخذ معنى مشتركاً بين المسميين ، وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق من المخلوق ، والمخلوق من الخالق ، ولا بد من هذا في جميع اسماء الله وصفاته ، يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق ، وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعين من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى .

٦ — بيّن شيخ الاسلام (رحمه الله تعالى) في الرسالة التدمرية وغيرها أن نفاة الصفات يقعون في كثير من الأوهام والمحاذير (منها) ظنهم أن مدلول النصوص هو التمثيل (ومنها) أنهم بنوا على ظنهم السيء تعطيل ما أودع الله ورسوله في كلامهما من معاني الإلهية اللائقة بجلال الله تعالى . (ومنها) أنهم نفوا عن الله تعالى تلك الصفات بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . (ومنها) أنهم وصفوا الرب تعالى بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات ، أو صفات المنقوصات والمعدومات ، فهم يجمعون في كلام الله وفي الله بين التعطيل والتمثيل ، وهذا من الإلحاد في أسماء الله وآياته .

٧ — يظهر من كلام الحافظ ابن حجر ، أن الشيخ نصراً المنبجي الذي كان مقدماً في الدولة هو الذي أشاع مسألة النزول عن الدرج ، بسبب كتاب ورده من الامام ابن تيمية ينكر عليه فيه أقوالاً في وحدة الوجود ، ويعدّها عليه ، قال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة (١ : ١٥٤) : « وكتب اليه كتاباً طويلاً ، ونسبه وأصحابه الى الاتحاد الذي هو حقيقة الإلحاد ، فعظم ذلك عليهم ، وأعانه عليه قوم آخرون ، ضبطوا عليه كلمات في العقائد مغيرة ، وقعت منه في مواعيده (مواعظه) وفتاويه ، فذكروا أنه ذكر حديث النزول ، فنزل عن المنبر درجتين (كذا) فقال : كنزولي هذا ، فنسب الى التجسيم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأقول : قد عرفت المراد من لفظ المنبر ، حتى ان الحافظ ابن حجر قال : « وكان يتكلم على المنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث ، فيورد في ساعة من الكتاب والسنة ، واللغة والنظر ، ما لا يقدر أحد على أن يورده في عدة مجالس ، كأن هذه العلوم بين عينيه » (ص ١٥٣ ج ١) من الدرر . وهذا مما يؤكد أنه كان يلقي درسه على كرسي يجلس عليه ، والمستمعون حوله ، فكلامه على طريقة المفسرين — من بعد صلاة الجمعة الى العصر ، وإيراده من الآيات والأحاديث ونصوص اللغة ، وأقوال العلماء ، في مجلس واحد ما لا يورده غيره في مجالس كثيرة كما تقدم ، هو طريقة المدرسين المحققين في حلقات المجالس الكبرى لا خطباء المنابر وهم وقوف ، لا سيما وقد صرحوا بجلوسه في دروسه ، وهذا لا يتيسر على منابر الخطب الجمعية .

ثم انظر الى قوله في خصومه : ضبطوا عليه كلمات في العقائد مغيرة ، فإذا كانت مغيرة فما ذنبه هو حتى يؤخذ بها أو تؤخذ عليه ؟ « ولا تزر وازرة وزر أخرى » والحافظ ابن حجر هو ناقل غير قائل ، وفي قوله : « عقائد مغيرة » ما يثبت أنه لا يعتد بما قالوه ، بل لا يعبأ بما افتري به عليه ، كيف وقد نقل أقوال الأئمة الثقات فيه ، وهم قد نزهوه عن تلك المفتريات ؟ ومن أراد استيفاء البحث فليراجع مجموعة الرد الوافر ، أو الرسالة التدمرية لشيخ الاسلام ، أو ملحق الجزء الرابع من فتاويه ، أو العقود الدرية للحافظ ابن عبد الهادي ، ليبلغ حد اليقين في نفي مطاعن الطاعنين .

٨ — إن العلوم الحديثة قربت فهم النصوص على طريقة السلف ، وبينت أنها الأعلم والأحكم ، بَلْهَ كونها الأهدى والأسلم ، فمن ذلك حديث النزول الذي أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين : « ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا .... الخ » فقد أورد في كتاب (دفع شُبه التشبيه) قول القاضي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أبي يعلى : « النزول صفة ذاتية ، ولا نقول : نزوله انتقال ، وقال ابن الجوزي : « وهذا مغالط » قلت : ليس بمغالط فقد ظهر في عصرنا ما يؤيد قوله ، فإن صوت المذياع الآن يسمع من كل مكان كما يسمع من مكانه ، وهذا الاختراع الحديث يقرب لنا فهم ما أورده البخاري في صحيحه ، من أن الله ينادي عباده بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، ومثله : اذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صوته .. الخ ، بل الآلة التي تريك المتكلم الآن حاضراً عندك وهو لم يبرح مكانه (Télévision) تهدينا الى فهم النزول الى سماء الدنيا بلا انتقال ، وأن هذا النزول هو صفة ذات لا صفة فعل ، كما قال القاضي أبو يعلى ، ومثله إسناد صفة الكلام اليه تعالى في قوله : « وكلم الله موسى تكليما » وقول رسوله : « إذا تكلم الله بالوحي » فوصفه بما وصف به نفسه حقيقي غير مجازي ، وهو لا يحتاج الى تأويل بله التعطيل ، فراراً من شبهة التشبيه ، فإن تشبيه من ليس كمثله شيء ، بالمخلوق المتكلم بفم ولسان ، غير وارد من أصله ، فقد أنطق العلم الحديث الآن الجمادات فنطقت بغير فم ولسان ، كالمذياع والحاكي ، أفتأبى قدرة الله وحكمته إلا أن يتكلم بفم ولسان كالانسان ؟ أليس هو القادر على أن يختم على فم الانسان ، وينطق جسمه الصامت كما أخبر بعدة آيات ؟ منها قوله سبحانه « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم » الآية . أفيعقل أن يكون هذا القادر الحكيم عاجزاً عن التكلم إلا بفم المخلوق ؟ وجملة القول : إن هذه الرواية مختلقة على ابن تيمية سواء صحت عن ابن بطوطة أم لم تصح ، فهو لم يره ولم يسمع منه ، ومؤلفاته جميعها ترد عنه هذه الكلمة الشاذة ، بل لو ثبتت الرؤية والسماع ، لصح أن نقول : إن ابن بطوطة شبه له ابن تيمية كما شبه عنزق النخلة في القصة التي حكاها ابن بطوطة في سبب تسمية الشيخ رسلان بالباز الأشهب (ج ١ : ٥٩) وقد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كنت دخلت على شاب من معارفي ، فقلت له : ما أشبهك بفلان ، قال : فلان ما أعرفه ، ولكني أعرف شابًا آخر لولا تحققي من وجودي المستقل عنه لظننته إياي ، وحكايات الشبه والاشتباه في الأشخاص والأشياء لا تكاد تحصر ، وهي داخلة في باب تحقيق الشخصية (Identification) من كتب الطب الشرعي وغيره .

على أن ابن بطوطة لم يكتب رحلته بقلمه ، وإنما أملاها على ابن جزي الكلبي ، وقال هذا في المقدمة : « ونقلت معاني كلام الشيخ ابي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمعاني التي اعتمدها » . فيجوز أن يكون ذلك من تحريف النساخ ، أو وسوسة بعض الخصوم ، والله تعالى أعلم .

(يتبع) محمد بهجة البيطار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net